واحة المذنب

نشرة دورية تصدر عن نادي القصيم الأدبي - فرع المذنب العدد التاسع ١٤٣٩ هـ/ ٢٠١٨ م

د. أبو أوس إبراهيم الشمسان

(أستاذ اللغة العربية بكلية الآداب

جامعة الملك سعود)

حكايات ١٢

من حكايات الذئب في المذنب

بين الإنسان والذئب علاقة قديمة فرضها شظف العيش في الصحراء، تشابها في الاعتماد على الكسب، يخاف كل منها الآخر ويحذر منه قدر طاقته، ولكن خوف الإنسان من الذئب لم يمنعه من احترامه حتى اتخذ من اسمه أعلامًا فتسمى بطائفة من اشتقاقاته (ذئب، ذياب، ذيبان، ذؤيب) ويوصف الشجاع من الإنسان بأنه ذيب أو ذيبان، ويشبهون الشتاء المرعب به (الشتا وجه ذيب).

خلد التراث العربي[١] ثقافة عريضة مدادها هذه العلاقة بين الإنسان والذئب، بينهما عداوة وبينهما احترام للشجاعة والقوة والبسالة، منها مواقف سجلها الشعر العربي فجاءت مثيرة للدهشة والإعجاب، حين ينظر الإنسان إلى الذئب نظرته إلى الإنسان الشجاع يكره ذله وضعفه ويكرم وفادته، فهذا المرقش الأكبر الهذلي يروى حكايته مع الذئب الذي استضافه فأضافه بحزة لحم حياءًا منه كما يستحيي الإنسان من الإنسان[٢]:

وَلَمّا أَضَـأْنا الـنّارَ عِـنْدَ شِـوائِنا
عَـرانا عَلَيْها أَطْلَسُ[٣] اللَّوْنِ بائِسُ
نَبَـذْتُ إِلَـيْهِ حُـزَّةً مِـنْ شِـوائِنا
حَيـاءًا وَما فُحْشي عَلى مَنْ أُجالِسُ
فَـآضَ[٤] بِها جَـذْلانَ يَنْفُـضُ رَأْسَهُ
كَما آبَ بِالنَّهْبِ الكَميُّ[٥] الْمُخالِسُ

وهذا الفرزدق نزل بالغريّين[٦] فعراه على ناره ذئب، فأبصره مقعيًا يصيء[٧]، ومع الفرزدق شاة مسلوخة فرمى إليه بيد

---

(١) من أوسع الكتب وأوعبها عن الذئب كتاب "الذئب في الأدب العربي" لفضل عمار العمّاري (جامعة الملك سعود/ الرياض، ٢٠١٢م).

()المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبيّ، المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون (ط٦، دار المعارف بمصر/ القاهرة، ١٩٦٤ م) ص٢٢٦.

(٣)"فَأَمَّا الذِّئْبُ الْأَطْلَسُ فَيَقُولُونَ: الْأَغْبَرُ، وَالْقِيَاسُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الَّذِي قَدْ تَمَعَّطَ شَعَرُهُ، فَإِنْ كَانَ مَا يَقُولُونَهُ صَحِيحًا فَكَأَنَّهُ مِنْ غُبْرَتِهِ قَدْ أُلْبِسُ طَيْلَسَانًا"، انظر: أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون (دار الفكر/بيروت، ١٩٧٩م)٣: ٤١٩.

(٤)"آضَيَئِيضُ أَيْضًا، أي عاد. يقال: آضَ فلانٌ إلى أهله، أي رجع". أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار (ط٤،دار العلم للملايين/ بيروت، ١٩٨٧م) ٣: ١٠٦٥.

(٥) "والكَمِيُّ: اللابس السِّلَاح. وَقيل: هُوَ الشجاع الجريء، كَانَ عَلَيْهِ سلَاح أَو لم يكن، وَقيل: الكَمِيّ: الَّذِي لَا يحيد عَن قِرنه وَلَا يُروغ عَن شَيْء".أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي (ط ١، دار الكتب العلمية/ بيروت، ٢٠٠٠م) ٧: ١١٧.

(٦) "وَهُمَا بناءَان طَويلَان، يُقَالُ هُما قَبْرُ مالك وعَقِيل نَديمَي جَذيمَةَ الأَبْرَش، وسُمِّيا الغَرِيَّيْن لأَنَّ النُّعْمَانَ بْنَ المنذرِ كَانَ يُغَرِّيهما بدَمِ مَنْ يَقْتُله فِي يَوْمِ بُؤْسِه".محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور، لسان العرب (ط٣، دار صادر/ بيروت، ١٤١٤ه) ١٥: ١٢٢.

(٧) أي يموء كالهر مستعطفًا.

فأكلها، ثمّ بما بقي فأكله؛ فلما شبع ولّى عنه، فقال[1]:

وَلَيْلَةَ بِتْنا بالْغَرِيَّيْنِ ضافَنا
عَلَى الزّادِ مُوشِيُّ الذِّراعَيْنِ أَطْلَسُ
تَلَمَّسَنا حَتّى أَتانا وَلَمْ يَزَلْ
لَدُنْ فَطَمَتْهُ أُمُّهُ يَتَلَمَّسُ
فَلَوْ أَنَّهُ إِذْ جاءَنا كانَ دانِيًا
لَأَلْبَسْتُهُ لَوْ أَنَّهُ يَتَلَبَّسُ
وَلَكِنْ تَنَحّى جَنْبَةً بَعْدَما دَنا
فَكانَ كَقابِ الْقَوْسِ أَوْ هُوَ أَنْفَسُ
فَقاسَمْتُهُ نِصْفَيْنِ بَيْني وَبَيْنَهُ
بَقِيَّةَ زادي وَالرَّكائِبُ نُعَّسُ

وللفرزدق قصيدة أخرى يروي فيها إطعامه للذئب على حذر وإشفاق، قال:

وَأَطْلَسَ عَسّالٍ[2] وَما كانَ صاحِبًا
رَفَعْتُ لِناري مَوْهِنًا[3] فَأَتاني
فَلَمّا دَنا قُلْتُ ادْنُ دونَكَ إِنَّني
وَإِيّاكَ في زادي لَمُشْتَرِكانِ
فَبِتُّ أَقُدُّ الزّادَ بَيْني وَبَيْنَهُ
عَلى ضَوْءِ نارٍ مَرَّةً وَدُخانِ
وَقُلْتُ لَهُ لَمّا تَكَشَّرَ ضاحِكًا
وَقائِمُ سَيْفي مِن يَدي بِمَكانِ
تَعَشَّ فَإِنْ عاهَدْتَني لاتَخُونُني
نَكُن مِثْلَ مَن يا ذِئْبُ يَصْطَحِبانِ
وَأَنْتَ امْرُؤٌ يا ذِئْبُ وَالْغَدْرُ كُنْتُما
أُخَيَّيْنِ كانا أُرْضِعا بِلِبانِ
وَلَوْ غَيْرَنا نَبَّهْتَ تَلْتَمِسُ الْقِرى
رَماكَ بِسَهْمٍ أَوْ شَباةِ سِنانِ

ومن أشهر مواقف الضيافة ما رُوي عن الملقب بمعشي

(١) هبة الله بن علي بن حمزة العلوي (ابن الشجري)، الحماسة الشجرية، تحقيق: عبدالمعين الملوحي، وأسماء الحمصي (وزارة الثقافة/ دمشق، ١٩٧٠م) ص ٧٢٠-٧٢١.
(٢) "يُقَالُ: عَسَلَ يَعْسِلُ عَسَلَانًا، كَمَا يَعْسِلُ الذِّئْبُ، إِذَا مَضَى مُسْرِعًا. وَالذِّئْبُ عَاسِلٌ، وَالْجَمْعُ عُسَّلٌ وَعَوَاسِلُ"، ابن فارس، مقاييس اللغة، ٤: ٣١٤.
(٣) "الْمَوْهِن والوَهْن نحوٌ من نِصْفِ اللَّيْل"، أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب (ط١،دار إحياء التراث العربي – بيروت، ٢٠٠١م) ٦: ٢٣٥.

الذيب، وهو مكازي بن دغيم السعيّد العليان من شمر سمع عواء الذئب آخر الليل (يقنب) وأطال في عوائه، سأل عبده ما بال هذا الذئب أطال عواءه؟ رد عليه العبد: يا عمي الذئب هرف وكبير في السن ولا يقدر على الكلاب وجوعان، قال له مكازي: قم اربط له ذبيحة وعشّه، ربط العبد للذئب ذبيحة وتعشي، وعند الصباح سألت ابنتا مكازي جوزاء ووضحاء العبد عن حبل الحطب، فأخبرهما بسالفة أبيهما مع الذئب، وانتشرت القصة بين الناس وصار لها صدى في أشعارهم.

سليمان الغزي يغدّي الذئب[1]

وكما ضيّف المرقش والفرزدق ومكازي الذئب ضيّفه سليمان الغزي من أهالي نبعة[2]؛ إذ كان عائدًا على بعيره من الأثلة إلى نبعة وظهر له ذئب ظل يسايره حتى إذا نوّخ راحلته في الظهيرة ليرتاح ويعد غداءه، أقعى الذئب غير بعيد منه يراقبه، أشعل سليمان ناره وعجن لقرصه الذي سيخبزه على الجمر، فلما استوى المجمار واستخرجه من الجمر ونظفه من بقايا الفحم كسر منه كسرة ألقى بها إلى الذئب الجائع فالتهمها ولم يتعد مكانه،واصل سليمان رحلته والذئب يرافقه بهدوء حتى دخلا نبعة، وأخذ الناس على قلة ما لديهم يطعمون هذا الذئب بسائر طعامهم المفتقر للحم، والذئب مانع نفسه من الهجوم على غنمهم تقديرًا لصنيعهم، حتى جاءه وقت قرم فيه إلى اللحم فانسلّ إلى الجرف[3]، جنوب نبعة،حيث مزرعة الدحيم وغنمهم، واحتمل منها حَملًا فرّ به وتصايح القوم وجروا خلفه فأعياهم اللحاق به إلا سليمان الغزي الذي كان عدّاءًا تمكن منه وانتزع الحمل منه وفرّ الذئب، ولكن سليمان فوجئ في صباح اليوم التالي ببعض غنمه قد افترس، فعرف أن صاحبه عاد منتقمًا منه.

(١) سمعت هذه الحكاية من الأستاذ عبدالرحمن بن محمد الخميس.
(٢)"بيوت سكنية ومزارع نخيل قرب حي الصفراء"،انظر: عبدالرحمن بن عبدالله الغنايم ، المذنب بين الماضي والحاضر (ط٣، دار عبدالعزيز بن سليمان العقيلي الثقافية/ المذنب، ١٤١٤ه) ص٢١١. ونبعة مؤنث نبع، سميت بذلك لوجود نبع فيها، "نَبَعَ الماء يَنْبَعُ ويَنْبُعُ ويَنْبِعُ نَبْعًا ونُبوعًا: خرج من العين"، الجوهري، الصحاح، ٣: ١٢٨٧.
(٣)"مزرعة قديمة جنوب نبعة قرب الوادي"، انظر: عبدالرحمن الغنايم ، المذنب بين الماضي والحاضر، ص٢٠٤. "الجرف ما أكل السيل من أسفل شق الوادي والنهر والجمع أجراف وجروف وجرفة". ابن سيده، المحكم ، ٧: ٣٩٠.

مسايرة بين شاب وذئب[١]

"يحكى أن أحد أبناء بلدنا (المذنب) كان راجعًا من إحدى الضواحي النائية يقود بقرة وعجلًا فإذا بالذئب يمشي إلى جواره بكل هدوء. أدرك الرجل أن الذئب يطمع بالعجل فأطلقه له رجاء أن يسلم من أذاه، واستمر الرجل في طريقه جازمًا أن الذئب سيتخلف ليأكل العجل، ولكنه لاحظ أن شيئًا من ذلك لم يحدث بل ظل الذئب يماشيه كما كان يفعل. قال الرجل في نفسه: الذئب لن يكتفي بالعجل بل يريد البقرة. لا حول ولا قوة إلا بالله. فأطلق البقرة واستمر في طريقه يريد النجاء بنفسه ولكن الذئب استمر معه يماشيه يسرع إن أسرع ويبطئ إن أبطأ. جزم الرجل أن الذئب يريده هو، وأن قضاء الله لا مردّ له، ودخله الهلع والخوف، ولم يدر ما يفعل فأهوى على الأرض وجعل رأسه بين يديه ينتظر قضاء الله فيه. اقترب الذئب منه، وبدأ يحثو على الرجل من التراب والرجل جامد لا يقوى على الحركة، ومضت فترة كأنها قرون متتابعة على الرجل المرعوب، ثم إن الذئب انصرف مسرعًا، والرجل لا يصدق ما حصل، نهض وعاد إلى حيث بقرته وعجله وقادهما إلى بيته وهو لا يصدق ما حصل"[٢].

الذئب ووهم البشم[٣]

حكاية تتكرر، فالذئب ينتهز الفرص لمهاجمة الأغنام في حجراتها، حكى أبو حمد محمد الحوشان أنه كان لهم حوش أغنام في طوقا[٤]، ولما دخلت امرأة في الصباح لحلب بعض الشياه تفاجأت بذئب ممدد بين الأغنام وقد انتفخ بطنه انتفاخًا عظيمًا بعد أن بعج جملة من الشياه، وكان قد تسلل من مجرى السيل الذي أنفذ نفسه منه ساعة كان ضامرًا من الجوع؛ ولكنه بعد أن ملأ بطنه باللحم عجز عن الخروج، فانطرح في مكانه، صرخت المرأة تستنجد بالقوم، فلما رأوه على هذه الحال جزموا بأن البشم قتله، وتعاونوا على سحبه وإلقائه في مكان بعيد، فلما تولّى القوم وانقطع رزّهم[٥] وأمِن خطرهم قفز هاربًا لا يُلوي على شيء.

الذئب في شرك المنثر[٦]

حكاية سمعتها في صغري وأنسيت أبطالها ورواتها، عن مزارع كان يحصد القتّ (البرسيم) ليجمعه في منثر، هاجمه ذئب، رآه مندفعًا نحوه فاغرًا فاه، وبسرعة ملهمة تناول المنثر،

(١) سمعت القصة في مجلس الأستاذ عبدالعزيز بن صالح الخميس وأنسيت راويها.
(٢) أبو أوس إبراهيم الشمسان، حكايات من نجد، دوحة المذنب (نادي القصيم الأدبي، فرع المذنب، ٢٠١١م) ع٢، ص٧٥.
(٣)"بشم يبشم بشمًا وأصل البشم التُّخمَة للبهائم خَاصَّة ثمَّ كثر حَتَّى اسْتعْمل فِي النَّاس"، انظر: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي (ط١، دار العلم للملايين/ بيروت، ١٩٨٧م) ١: ٣٤٥.
(٤) "مزرعة نخيل قديمة جنوب غرب المذنب"انظر: أبو أوس إبراهيم الشمسان، معاني بعض الأماكن في المذنب، دوحة المذنب (نادي القصيم الأدبي، فرع المذنب، ٢٠١٥م) ع٦، ص١٦.
(٥) الرزّ صوت الإنسان.قال لبيد بن ربيعة:

وتَوَجَّسَتْ رِزَّ الأَنِيسِ، فَراعَها
عَنْ ظهرِ غَيْبٍ، والأَنِيسُ سَقامُها

(٦) المنثر بساط من الصوف في طرفيه عروة يستعمل لنقل القت أو الحشيش من البرية.

طواه على ساعده، فلما قفز الذئب نحوه يريد رقبته ألقمه ساعده، فأنشب أنيابه بالمنثر وسارع الرجل إلى نحره بالمخلب، حركات توالت كأنها مقدرة مصنوعة.

ذئب تودي به مثعوبة[١]

كان بعض أهل المذنب ينامون في الصحراء يحرسون بعولهم[٢] من المواشي الضالة ويستعدون لحصادها، وعانوا من ذئب اعتاد العبث في آنيتهم وبعثرة زادهم يشرب من مائهم ليلًاحين يغطون في نومهم، وفي ليلة تربص به عبدالرحمن العيسى ذو اليسرى الباطشة القوية، جعل المثعوبة الفارغة عند رأسه، فلما بدأ الذئب عبثه ودنقس[٣] نحو كيس عاجله العيسى بضربة من المثعوبة لم ينهض بعدها.

ذئب تخنقه نعجتان[٤]

روى متعب بن دحيان الشتيلي أنّ الشيخ صالح بن فايز الحربي إمام مسجد حسو جميعان في نفود صعافيق[٥] كان

(١) المثعوبة إناء نحاسي ذو ثعبة أي مثعب (ميزاب) يهب انصباب الماء حين يصغى الإناء بقدر الحاجة، ويعين هذا على غسل اليدين من غير إدخالهما في الماء ليظل نظيفًا طاهرًا. "وَالْمَثْعَبُ، بِالفَتْح: واحِدُ مَثاعِبِ الحِياضِ. وانْثَعَبَ الْماءُ: جَرى فِي الْمَثْعَبِ".انظر: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار (ط٤،دار العلم للملايين/ بيروت، ١٩٨٧م)
(٢) جمع بَعَل، وهو الزرع المعتمد على المطر وما اختزنته الأرض من مطر الوسم فهم لا يبعلون ما لم توسم الأرض، و"البعل والعذى واحد، وهو ما سقته السماء. وقال الأصمعي: العذى: ما سقته، السماء، والبعل: ما شرب بعروقه من غير سقى ولا سماء"، انظر: الجوهري، الصحاح، ٤: ١٦٣٥.
(٣) دنقس أي طأطأ برأسه ويقولون طنبس، "الدَّنْقَسَةُ: تطأطؤ الرأس ذلًا وخضوعا، وخفض البصر"، انظر: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي،كتاب العين، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي (دار ومكتبة الهلال، د.ت.) ٥: ٢٥١.
(٤)عبدالرحمن بن عبدالله الغنايم، أوراق الأمس مع متعب الشتيلي، دوحة المذنب (نادي القصيم الأدبي، فرع المذنب،٢٠١٧م) ع٨، ص٢٥-٢٦..
(٥) "نفود واسعة وعرة شرق المذنب بعرض ٢٥كم على طول المنطقة، وصعافيق جمع صعفوق وهو نوع من الكمأة؛ ولكن الصعفقة في لهجات نجد صب السائل على السائل، فهل سميت رمال هذه النفود وكأن بعضها صعفق على بعض". انظر: أبو أوس إبراهيم الشمسان، معاني بعض الأماكن في المذنب، دوحة المذنب (نادي القصيم الأدبي، فرع المذنب، ٢٠١٥م) ع٦، ص١٦.

يقود نعجتين ربط رقبتيهما بحبل سميك من الصوف لئلا تفترقا عند حلول الظلام فيصعب الوصول إليهما، فلما أدركته صلاة المغرب قرب شرابث[1] وسط رمال صعافيق الوعرة انهمك في أدائها، وبينا هو كذلك هجم على النعجتين المتقابلتين ذئب كاسر، حتى إذا كان بينهما قفزت كل واحدة منهما في اتجاه معاكس لأختها فاستحكمت حلقة من الحبل حول عنق الذئب وما زالتا تجاهدان في طلب النجاة والصراع للهرب وحلقة الحبل تخنق الذئب حتى هوى فأدركت النعجتان أنه مات ففُزِّعَ عنهما، ولم يخطر ما جرى ببال الشيخ على الرغم من إحساسه شيئًا من اضطراب النعجتين، حتى إذا انصرف من صلاته وعاد إلى شاتيه وجد بينهما الذئب جثة هامدة.

ذئب الصَّريف[2]

قال محمد بن إبراهيم الوهيد" كنا نمتلك ... ثلاثة جمال ترعى في النفود وتعود قبل غروب الشمس ولكنها لم ترجع في إحدى الليالي؛ لأنها اتجهت نحو الشمال الأكثر خصبًا من أرضنا، وفي الصباح أمرني والدي بالبحث عنها فذهبت راجلًا دون استعداد في يوم قارس البرد وتابعت أثرها حتى وصلت الصريف وكنت أسمع عن ذئب الصريف الذي افترس شخصين منذ فترة قريبة وتابعت طريقي باتجاه الأسياح[3] حتى أظلم الليل فخفت على نفسي وقمت بحفر حفرة سددت مدخلها بشجرة عرفج بعد أن رجعت إلى الوراء ولا أدري كيف نمت رغم الجوع والخوف"[4].

(١)"جال يقع في أقصى الجنوب الشرقي من القصيم، ويمتد جنوبًا حتى يخرج عن حدوده. وهو يعتبر من حدود (المستوي) الشرقية. وسمي شرابث لأن حصاه خشن، ولا يكاد يوجد فيه حصا أملس وأرضه ليست سهلة ولا مستوية".انظر: العبودي، معجم بلاد القصيم، ٣: ١٢٠٧.

(٢) "الصريف ماء واقع في شرقي القصيم في المنطقة المحاذية لمدينة بريدة من جهة الشرق على بعد حوالي ٢٧ كيلا". "وقد اشتهر الصريف بوقعة حدثت عام ١٣١٨هـ ... سميت (سنة الصريف) ... بين ابن صباح ومن معه من أهل القصيم ... وعبدالعزيز بن متعب بن رشيد"،انظر: محمد بن ناصر العبودي، معجم بلاد القصيم (ط٢، ١٩٩٠م) ٤: ١٣٤٦-١٣٤٩. والصريف والصريفة هو السياج المتخذ من عسبان النخل.

(٣) كانت الأسياح قديمًا تسمى النِّباج، "وتقع الأسياح إلى الشمال الشرقي من مدينة بريدة. على بعد حوالي ٦٣ كيلًا"، و"سميت بذلك لأن فيها آبارًا كانت مياهها تسيح على وجه الأرض إذا كثر السيل". انظر: محمد بن ناصر العبودي، معجم بلاد القصيم (ط٢، ١٩٩٠م) ٥: ٣١٢.

(٤) عبدالرحمن بن عبدالله الغنايم، أوراق الأمس مع محمد بن إبراهيم الوهيد، دوحة المذنب (نادي القصيم الأدبي، فرع المذنب، ٢٠١٤م) ع٥، ص ١٦.

وذكرتني هذه الحكاية بأخرى سمعتها من الأستاذ عبدالرحمن بن محمد الخميس من أهالي المذنب، وأما الحكاية فالغالب حسب قوله أنها حدثت في شمال نجد، قال "وحكى أحدهم أنه كان مسافرًا على قدميه ولم يستطع أن يبلغ مأمنه قبل المساء، ولما مضى جزء من الليل بدأ بسماع صوت الذئاب فأدرك أنه لابد من الاختباء عنها حتى يظهر النهار فبحث عن مأوى فوجد دحلًا[1] في إحدى القور[2] فدخله وأقفل بابه بأشجار من العوسج. أما الذئاب فقد شمت رائحته وتبعته إلى مكانه، دارت حوله وحاولت الدخول من باب الدحل لكن الأشواك ردعتها؛ ولكنها لم تيأس، فبدأت تحفر الغار من الأعلى، وتمكن ذئب بعد فترة من اختراق السطح وأقحم يده يريد الرجل، ولكن الرجل كان حاضر الذهن شجاع القلب إذ أهوى على يد الذئب بسكينه فشكه بها. حاول الذئب انتزاع يده من الفتحة لكنه عجز فالسكين تعترضه وتؤلمه وراح يجرجر يده دون جدوى، أما الذئاب الأخرى فقد زادت حركتها واضطرابها فوق سطح القارة وبعد فترة سقطت يد الذئب على الأرض. لقد شمت الذئاب دماء صاحبها وأدركت عجزه عن الفرار فتكالبت عليه ونهشته بلا رحمة. لم يعد الرجل يسمع للذئاب صوتًا ولزم مكانه حتى أشرقت الشمس وخرج بهدوء ونظر إلى أعلى القارة فلم يجد من الذئب إلا عظامه. حمد الله وتابع طريقه"[3].

الذئب والإنسان وجهًا لوجهه[4]

قال متعب بن دحيان الشتيلي"في التاسعة من عمري كنت أرعى صغار الماعز (البهم) بفيضة وافرة العشب في يوم شديد البرودة وقد ارتديت عباءة سوداء

(١) الدحل فراغ مائل داخل الأرض، جاء في (معجم العين): "الدَّحْل: مَدْخلٌ تحتَ الجُرْف أو في عُرْض جَنْب البئر في أسفلِها، أو نحوه من المناهِل والموارد".

(٢) جمع قارة أي أكمة وهي مرتفع من الأرض دون التل.

(٣)أبو أوس إبراهيم الشمسان، حكايات من نجد، دوحة المذنب (نادي القصيم الأدبي، فرع المذنب، ٢٠١١م) ع٢ص٧٥.

(٤)عبدالرحمن بن عبدالله الغنايم، أوراق الأمس مع متعب الشتيلي، دوحة المذنب (نادي القصيم الأدبي، فرع المذنب،٢٠١٧م) ع٨، ص٢٥-٢٦.

وغطاء رأس من اللون ذاته، وقد التف حولي بعض البهم عندما وثبت ذئبة فوق جسدي لكنها لم تصبني بأذى؛ لأن فمها كان مغلقًا لحسن الحظ، وقد رأيت ثدييها العلويين في أعلى الزور مليئين بالحليب وكان جسدها ضامرًا وذيلها داخلًا بين أرجلها، وعندما صدرت مني همهمة مكبوتة وقفت أمامي ورأيت عروق عينيها الحمراوين، لكنها بادرت بالهرب لأن كلبنا الأسود العقور الرابض أمام بيت الشعر الذي يبعد عني أقل من ٢٠٠ متر سمع الصوت فأتى مسرعًا لتبدأ مطاردة مثيرة أنهتها الذئبة بصعود تل صغير عاد بعدها الكلب أدراجه بعد أن أدى مهمته"[١].

هذه مواجهة قريبة من وجه الذئب أرته عروق العينين فما يكون الحال في ملاصقة لوجه الذئب، سمعت الأستاذ عبدالرحمن بن محمد الخميس يروي الحكاية قال "يحكى أن رجلًا سافر ماشيًا من الأحساء إلى الرياض، وقد قيل له إن عليه أن يجتاز مكانًا من الأماكن في النهار؛ لأنه مذأبة[٢] لا يسلم صاحبه، فعمل بنصيحتهم وتجاوز المكان أول النهار، وكان قد بدأ مسيرته من الأحساء بليل، فلما كان قبيل الظهر أدركه الكلال فسقط على الأرض وراح في سبات عميق، وما شعر بنفسه إلا بقطرات من الرذاذ تتساقط على وجهه، فتح عينيه وإذا ذئب قد فحج عليه يتشممه، قال الرجل: فصرخت صرخة أودعتها كل قوة ملكتها تلك الساعة ولا أدري كيف صرخت، غير أن الذئب جفل من شدة صرختي، وجرى لا يلوي على شيء وسلحه من ورائه كطلقات المدافع، وحمدت الله على نجاتي منه وتابعت طريقي"[٣].

قال متعب الشتيلي "وفي سن الثانية عشرة كنا مقيمين في عين ابن حثلين بضليع أبو ظهير غرب أبو عينين (الجبيل) عندما طلب مني عمي أبو دغيّم بعد صلاة المغرب أن أضيف الحليب لخبزة بُرٍ أعطانيها وسط طاسة معدنية، فقصدت عنزًا وبدأتَ أحلب فوق الخبزة مباشرة، ففوجئت بذئب يضرب بمقدمة رأسه الطاسة التي أحلب بها فسقطت الخبزة من يدي، وصرخ عمي بأعلى صوته، فاختفى طارق الليل البغيض، وعدت لالتقاط خبزتي رغم ابتلالها بالحليب واختلاطها بالرمل"[١].

ومن مُثُل الصراع بين الإنسان والذئب ما حدث به متعب الشتيلي قال "وعندما كنت بالخامسة عشرة من عمري رأينا البرق يتلألأ باتجاه الإرطاوية، فاتجهنا إليه (محيلين) منطلقين من بنبان شمال الرياض، وكنا مجموعتين بتنا بروضة رملية يكثر بها شجر الحرمل في ليلة قارسة البرد، وقد فقدنا في ذلك اليوم كلبنا الذي كان يحمي أغنامنا حيث لدغته أفعى سامة رغم أنه كان يتفنن بقتلها دائمًا، وقد ولدت نعجة في تلك الليلة فأخذت وليدها ووضعته في حجري بجوارشجرة عرفج في اللحظة التي وثب عليّ خلالها ذئب جرح جبهتي وألقاني أرضًا قبل أن أتدارك أمري عندما استدار نحوي لاسترد بندقيتي القديمة (صمعاء)[٢] وأطلق على عجل رصاصة واحدة في الهواء شع سناها في كل مكان اختفى بعدها دون رجعة"[٣].

ولم يدر في خلد محمد بن إبراهيم الصيقل الشاب الصغير أنه سيكـون في مواجهة ذئب، قال لي كنـت راجـعًا

---

(١) عبدالرحمن بن عبدالله الغنايم، أوراق الأمس مع متعب الشتيلي، دوحة المذنب (نادي القصيم الأدبي، فرع المذنب،٢٠١٧م) ع٨، ص٢٥-٢٦.

(٢) أي كثيرة الذئاب.

(٣)أبو أوس إبراهيم الشمسان، حكايات من نجد، دوحة المذنب (نادي القصيم الأدبي، فرع المذنب، ٢٠١١م) ع٢، ص٧٥.

---

(١)عبدالرحمن بن عبدالله الغنايم، أوراق الأمس مع متعب الشتيلي، دوحة المذنب (نادي القصيم الأدبي، فرع المذنب،٢٠١٧م) ع٨، ص٢٥-٢٦.

(٢) أي ذات أنبوب قصير كأنه مقطوع.

(٣)عبدالرحمن بن عبدالله الغنايم، أوراق الأمس مع متعب الشتيلي، دوحة المذنب (نادي القصيم الأدبي، فرع المذنب،٢٠١٧م) ع٨، ص ٢٦.

على دراجتي بعد صلاة الجمعة في المسجد الجامع القديم، حتى إذا كنت في محاذاة مزرعة الركيان في الرميلة[١] سمعت رجلًا يستصرخ، ظننته طاح فكسر أو لدغته عقرب، فأسرعت إليه فإذا به عبدالله الدبيان (النجم)، رأيته باركًا على ذئب قد قطم أصبعه وجرح ساعديه والدم يسيل منه؛ ولكنه ممسك بتلابيب الذئب وبرأسه يريد تفادي الهلاك، تناولت جلمودًا، رفعته بيدي، صككت به رأس الذئب ثلاث مرات، مرة تلو مرة، فاختل توزنه، وأمكن الرجل أن ينهض عنه، لأن يديه خارتا، ولأنه يلتمس من يسعف جراحه قال لي وهو ماضٍ في طريقه: بينك وبينه الله، قلت له أرسل ابن أخيك بالبندق (البندقية)، وفجأة قفز الذئب خمسة أمتار ليواجهني وتسمّر أمامي، ظل محدّقًا بعينين حادتين، أما أنا فعلمت أن ليس بإمكاني الانهزام، فلئن ولّيته دبري ليقفزنّ عليّ، ولتكوننّ الهلكة، اقتربت منه شيئًا فشيئًا وهو جامد لا يريم، حتى إذا كنت قاب قوسين منه عاجلته بالجلمود، رميته به فكسرت ساقه، فانحرف عني قافزًا على الحبس، رأيته يمضي باتجاه الداخلة مزرعة (دحيم الحمّاد)، جاء ابن أخي عبدالله بالبندقية، ووافانا شاب من المطران، قال أعطوني البندقة وهيا بنا إليه، كنت انتزعت طنبًا من أربطة الدواب وتسلحت به، مضينا إلى الداخلة، وإذا بالذئب قربها قد لجأ إلى صور[٢] نخلة، رماه الشاب بالبندقية فأخطأه، ولكني رشقته بالطنب بكل ما استطعته من قوة فصادف أن دخل الطنب في جوفه فصار يرفس ويرفس حتى هلك آخر الأمر، أما إبراهيم الدبيان ومحمد الموسى فجاءا من وسط البلد وقد سمعا بالخبر على سيارة الموسى القديمة، رأيا الذئب الميت سألاني عما حدث قصصت عليهما القصص، سحبا الذئب وحملاه في السيارة وذهبا إلى الجريح لينقلاه إلى المستشفى في عنيزة إذ لَمّا يكن في المذنب مستشفى، كان الخوف أن يكون الذئب مسعورًا وقد كان، ولكن المصاب عولج حتى شفي، حمدت الله في ذلك اليوم أني أعتقت رقبة.

تدهور الذئب في المهالك

كان الذئب وما زال حربًا على الرعاة والمسافرين في الصحراء، وهم إن لم يسعوا إلى فنائه اجتهدوا ما استطاعوا في مدافعته بالزجر حينًا صائحين "الخلا... الخلا" أو برجمه أو

---

(١) تقع الرميلة في الزاوية بين طريق الملك عبدالعزيز وشارع الأمير فيصل بن مشعل.

(٢) الصور وجمعه صيران في لهجات الجزيرة ما يطلع أسفل النخلة من نخيلات وأما ما يطلع في عُرض ساقها فهو راكوب وجمعه رواكيب، جاء في (العين) "والصَّوْرُ: النَّخلُ الصِّغارُ" الخليل، العين، ٧: ١٥٠.

بإشلاء[١] الكلاب خلفه أو بأفخاخ قوية، ولكنهم ربما اضطروا إلى أن يحتالوا لما يؤدي إلى تدهوره في الحفر أو الآبار، وربما صادف أن تدهور من غير قصد قصدوه، ولكن حتفه أجاءه إلى ذلك، والاحتيال بين الإنسان والحيوان متبادل كل بما أوتي، قال الأستاذ عبدالرحمن بن محمد الخميس "كان أهل شيحة[٢] قد حفروا غبية[٣]لتسقط فيها الأرانب البرية التي تتردد على زرعهم وتفسده، وكانوا كل صباح ينظرون فيها ليأخذوا ما سقط من الأرانب، وفي يوم من الأيام نظروا فإذا بذئب قد تدهور فيها، وكان الذئب منتفخ البطن فجزم الصبيان أنه قد مات من سقطته؛ ولذلك تورم بطنه وانتفخ شأن الحيوانات التي تموت لحتفها. سحب الناس الذئب ليبعدوه عن المنازل اتقاء لرائحته وعادوا وحين التفت أحدهم رأى الذئب يفر نحو الصحراء"[٤]. وقال محمد بن إبراهيم الوهيد" وكنت أرعى الغنم في سن الخامسة عشرة في عين ابن هذال وفي طريق العودة في آخر النهار هاجمني ذئب جائع فحاولت دفعه عنها بكل قوة ولكنه اختطف جديًا صغيرًا اضطر إلى طرحه أرضًا وقد فارق الحياة بعد مطاردته الأهلُ، وقد احتفظت به وذهبت في صباح الغد لجمع كمية من النباتات البرية (السبط)[٥] ووضعتها فوق أخشاب قمت برصها على فوهة بئر مزرعتنا وعلقت الجدي الميت فوقها منتظرًا وقوع الذئب في المصيدة في تلك الليلة لكنه لم يأت؛ لكنه وقع بها في الليلة التالية وقتله والدي بضربة من عصا غليظة (مشعاب)[٦]".

روى الأستاذ عبدالرحمن بن عبد الله الغنايم [٧] أنه "افترس أحد الذئاب عِجلًا صغيرًا في نقرة الساروت بنفود صعافيق وولى قطيع الأبقار راجعًا لنقرة أم الخشب حيث فوجئ صاحبها ناصر الغميز بتلك العودة المبكرة على غير العادة وافتقد العجل فخرج للبحث عنه حافي القدمين متابعًا الأثر في منتصف نهار يوم قائظ كانت حرارته فوق المعدل الطبيعي وخاصة في منطقة رملية تغوص فيها الأقدام،

فرأى الذئب قد أنهى مهمته وتفيأ ظل شجرة أرطى بعد تلك الوجبة الدسمة، فاتجه نحوه حيث هرب الذئب بتباطؤ فرضه واقع الحال متجها نحو الشمال على أطراف النفود الغربي شرق الرويضة، وتبعه الرجل بهدوء، وكلما حاول الركون لظل شجرة تبعه بإصرار، فضاقت عليه السبل وأعياه التعب والعطش، وعندما تجاوزا الأبطية[١]والعكرشية[٢] يئس الذئب من النجاة أمام هذه المطاردة المضنية، فخرج للأرض المنبسطة التي لايحبذها عادة متجهًا نحو الغرب حتى وصل بئر اللّواف[٣]، على بعد يقارب ثمانية أكيال من مكان الانطلاق، ورمى نفسه في جبها العميق فكانت نهايته، ولايُعلم سبب هذا الاختيار الصعب بالسقوط في رابعة النهار، أهو رغبة في الوصول للماء الذي حسبه قريبًا بسبب الإعياء التام والعطش الشديد أم أنها نوع من الانتحار بعد فقدان أمل النجاة أمام خصم شديد المراس تُروى عنه قصة أخرى: عندما قبض بيده اليسرى على الجزء الأوسط الأمامي من ثوبه وهو يتناول طعام العشاء في ليلة مظلمة مع عدد من رجال البادية ساورتهم الشكوك من هذا التصرف الغريب، وبدت من بعضهم الابتسامات الصفراء عندما استمر على تلك الوتيرة، وبعد انتهاء تناول الوليمة طلب إشعال النار، وأخرج ثعبانًا كبير الحجم تسلل داخل ملابسه ، ولـم يرغب في إثـارة القلـق

---

(١) أي دعوتها لمهاجمته.

(٢)قرية جنوب غرب المذنب وتبعد نحو ٥كم. فيها مزارع نخيل، وشيحة مفرد شيح والشيح نبات سهلي ذو رائحة يستطب به.

(٣) الغبية حفرة عميقة في الأرض تغطى بالقش حتى لا تراها الأرانب فتتحاماها، ولذلك يسير على القش فينهار بها وتتدهور في الحفرة. وهو استعمال له أصله القديم، "غَبَّيت البئرَ إذا غَطَّيت رَأْسها ثم جَلعت فوقَها تُرابًا"، الأزهري، تهذيب اللغة، ٨: ١٧٩.

(٤)أبو أوس إبراهيم الشمسان، حكايات من نجد، دوحة المذنب (نادي القصيم الأدبي، فرع المذنب، ٢٠١١م) ع٢، ص٧٥.

(٥) "السبَطُ مِنَ الشَّجَرِ وَهُوَ سَلِبٌ طُوالٌ فِي السَّمَاءِ دُقاقُ العِيدان تأْكله الإِبل وَالْغَنَمُ، وَلَيْسَ لَهُ زَهْرَةٌ وَلَا شَوك، وَلَهُ وَرَقٌ دِقاق عَلَى قَدْرِ الكُرَّاثِ". ابن منظور، لسان العرب، (سبط)، ٧: ٣١٠.

(٦) المشعاب عصا من غصن ذي شعبتين تقصر إحدى الشعبتين فيصير الغصن كالخطاف تجمع به الأشياء وما غلظ منه يمكن أن يكون سلاحًا.

(٧)عبدالرحمن بن عبدالله الغنايم، أوراق الأمس مع محمد بن إبراهيم الوهيد، دوحة المذنب(نادي القصيم الأدبي، فرع المذنب٢٠١٤م) ع٥، ص ١٨.

()"قصر زراعي ونخيلات في ناحية المذنب في جنوب القصيم على بعد حوالي ٩ أكيال من مدينة المذنب إلى ناحية الشرق منها"، العبودي، معجم بلاد القصيم، ١: ٢٧٢.

(٢)"أرض زراعية شمال شرق المذنب"، انظر: عبدالرحمن الغنايم، المذنب بين الماضي والحاضر، ص٢٠٩، نسبة إلى العكرش، "وقال الليث :العكرش نبات يشبه الثِّيلَ ، ولكنه أشدّ خشونة منه. قلت: العكرش منبته نُزُوز الأرض الرقيقة، وفي أطراف ورقه شوك إذا توطَّأه الإنسان بقدميه أدمتهما"، انظر: الأزهري، تهذيب اللغة، ٣: ١٣٢.

(٣)سألت الأستاذ عبدالرحمن بن عبدالله الغنايم عنها فقال "اللواف مزرعة لأسرة العبودي تقع شمال شرق منتزه خرطم الجبلي".

للمدعوين، وظل يقاومه برباطة جأش وثبات لامثيل له"[١].

الصراع بين الإنسان والذئب

ربما ألجأ التدافع بين حاجة الذئب وحرج الإنسان إلى الصراع بينهما، وقد يكون ذلك مباشر كل المباشرة كل بما أوتي من قوة وأداة وربما كانت الحيلة وسيلة لأداء الغرض. ومن الحكايات التي تصف ذلك أنه "في عام ١٣٥٠هـ بهجرة أم دبّاب[٢]وسط نفود صعافيق تسلط ذئب شرس على قطعان الرعاة في تلك الهجرة الوادعة وعجز أهلها عن الوصول إليه والنيل منه لأنه كان يتحين الفرص المناسبة ويضوي[٣] على أغنامهم مع غروب الشمس وشروقها حيث تكون الرؤية شبه منعدمة والرعاة منشغلون باختتام يوم مضى أواستقبال يوم جديد. وفي أحد الأيام ساق هجر بن حمدان المهيبيل أغنامه للمرعى بعد بزوغ الشمس كعادته كل يوم، ولم يكن يحمل معه سوى عصاه التي لا تفارق يد كل الرعاة، فرأى الذئب نائمًا لاينطبق عليه قول الشاعر العربي:

ينـــام بإحــدى مقـلتيه ويتّــقي
بأخـرى المـنايا فهو يقظان نائم

ولأن الرجل يملك مقومات القوة من بسطة في الجسد وثبات في العزيمة بادر إلى ضرب رأس الذئب بعصاه وبدأ الصراع الضاري بين الاثنين، ومن عادة الذئب إذا هوجم أن ينشب أنيابه في رقبة الخصم، ويحاول إسقاطه أرضًا بواسطة ذيله الذي تصدر منه حركة دائرية سريعة قد تخل بتوازن الجزء الأسفل من جسم الخصم، ولكن هجر استبق الحادث، فعندما فتح الذئب فاه أدخل الرجل يده في شدقه واعتمد الخصمان على القوة الجسدية في صراع طويل انتهى بقتل الذئب، وفرح أهالي الهجرة بالتخلص من هذا العدوّ الشرس ونظم الشاعر خالد بن محسن الحميداني قصيدة يمتدح بها جسارة الرجل وإقدامه، منها:

هجر ولد حمدان مُوفي المواجيب
صميدع[٤]، خطلان الأيـدي تهـابه
ذيب الرجال اللي وطا غارب الذيب
زبـن الـذي هاك النهار انتخى به"[٥]

(١) عبدالرحمن بن عبدالله الغنايم، كتاب مازال تحت الإعداد يحتوي على مئات القصص.
(٢)"هجرة لجماعة من الحمادين من مطير وتقع قريبة من هجرة أخرى لهم تسمى (أم الخشب).. وأمّ دبّاب هذه إلى الشرق من المذنب على بعد حوالي ٢٥ كيلًا منه، وهي لغف نفود السرّ في شرقيه من جهة (المستوي)"، العبودي، معجم بلاد القصيم، ١: ٣٩٣.
(٣) "وسمعتُ غيرَ وَاحِد من الْعَرَب يَقُول: ضَوَى إِلَيْنَا البارحةَ رجلٌ فأَعلَمنا بكَيْتَ وكَيْت، أَي: أَوَى إِلَيْنَا. وَقد أَضْواهُ اللَّيْل إِلَيْنَا فغَبَقْناه وَهُوَ يَضوِي ضَيًّا". الأزهري، تهذيب اللغة، ١٢: ٦٧.
(٤) أي سميدع، "وَقَالَ النَّضر: الذِّئْب يُقَال لَهُ: سَمَيدع لسرعته وَالرجل السَّرِيع فِي حَوَائِجه سميدع .. وَقَالَ اللَّيْث السميدع الشجاع". الأزهري، تهذيب اللغة، ٣: ٢١٩.
(٥)في هذا إشارة لقصة وقعت لهجر عندما استطاع حماية أصحابه في معركة دارت مع خصوم لهم قال فيها الشاعر غازي الميموني قصيدة منها:

لولا هَجَرْ وُامَّهاتَ الْخَمْسْ — يُــــومِ الْتِقيــنا بَالاجْوادِي
تَعَرَّضَـونا طـْلوعَ الشَّمْسْ — وِافْتَكّــنا ذِيـــــبَ الاوْلادِي

وقال محمد بن إبراهيم الوهيد" في إحدى السنوات بعت حملين من الحطب في عنيزة وعندما أردت الرجوع طلب مني النعيم إيصال ثلاثًا من البقر لعين ابن هذال فقدمت العشاء للجملين والأبقار في شقيرة شرق عنيزة قبل غروب الشمس، وتابعت طريقي ومررت بقصر فضل بعد صلاة العشاء فحاول عبدالعزيز العقيل اللحاق بي لتحذيري من هجوم الذئاب التي تكثر في تلك الجهة؛ ولكنه لم يدركني لأنني تابعت طريقي، ولما وصلت (القلتة)[١] جنوب الجال الصخري هجمت عليَّ ثلاثة ذئاب فهربت الإبل، وحاولتُ مقاومة الذئاب بالصراخ عليها؛ لأنني لم أكن أحمل سلاحًا سوى العصا التي لا تجدي في ذلك الظلام الدامس، ودفعت الأبقار نحو الشرق، ولما بدأت الذئاب بمهاجمتي صرت أنادي بأعلى صوتي الذي وصل لمسامع عائلة الرمضي في الجفين[٢] فأدركوني بالوقت المناسب بعد أن تعرضت إحدى الأبقار للموت، ربما من الخوف؛ لأن أصابتها كانت في أذنها، وأصيبت الأخريات بجروح طفيفة"[٣].

كتب الأستاذ عبدالرحمن بن عبدالله الغنايم "كان علي الخلف الحربي راعيًا لأغنام سكان حي الشورقية[٤] والجُديِّدة[٥] وماحولهما حيث يذهب بها كل صباح نحو روضة المصيّة[٦] وأطراف نفود صعافيق ويعود بها قبل صلاة المغرب حيث ينتظرها الأطفال في مكان يُسمى (المهضَّل)[٧] ويقود كل منهم مايخص أهله من تلك المواشي التي تكون غالبيتها من الماعز الحلوب.

(١)"مجتمع مياه شمال طريق الثامرية وتطلق على موضع مشابه غرب المذنب"، انظر: عبدالرحمن الغنايم، المذنب بين الماضي والحاضر، ص ٢١٠. والقلتة هي القَلْتُ، "[قال] أبو عبيد عن أبي عمرو: القَلْتُ: كالنُّقْرة تكون في الجَبَل يَسْتَنقِعُ فيها الماء. والوَقْب نحوٌ منه. قلت: وقِلات الصَّمّان نُقَرٌ في رؤوس قِفافها يملؤها ماءُ السماء في الشتاء. وقد وَردتُها مرَّةً، وهي مُفعَمة، فوجدتُ القَلْتَ منها يأخذ ملء مائة راوية وأقلّ وأكبر؛ وهي حُفرٌ خَلقها الله في الصُّخور الصُّمّ". الأزهري، تهذيب اللغة، ٩: ٦٤.
(٢) "مزرعة قديمة تقع غرب الثامرية"، انظر: عبدالرحمن الغنايم، المذنب بين الماضي والحاضر، ص٢٠٥. والجُفَين تصغير جَفن، وهو غطاء العين من جلد الوجه، والجفن نبات "وَمن الشّجر الطّيب الرّيح الجَفْنُ والغَارُ"، الأزهري، تهذيب اللغة، ١١: ٧٨.
(٣)عبدالرحمن بن عبدالله الغنايم، أوراق الأمس مع محمد بن إبراهيم الوهيد، دوحة المذنب(نادي القصيم الأدبي، فرع المذنب٢٠١٤م) ع٥، ص١٨.
(٤)من محلات المذنب إلى الجنوب الغربيّ منه وهي الآن جزء منه باتصال العمران، غرس فيها شايع بن حسين وسمها الشرقية لأنها شرق ملكه في اللصافة، ثم حرفت إلى الشاروقية ثم الشورقية. انظر: محمد بن ناصر العبودي، معجم بلاد القصيم (ط ٢، ١٩٩٠م) ٣: ١٢٩٢-١٢٩٣.
(٥) "حارة قديمة جنوب المذنب شرق حي الشورقية"، انظر: عبدالرحمن الغنايم، المذنب بين الماضي والحاضر، ص ٢٠٤. والجُدَيِّدَة تصغير الجديدة، ولعلها سميت كذلك لأنها أرض جديدة أحييت.
(٦) روضة واسعة جنوبي المذنب قبل المفيض والمربع تنتهي إليها عدد من الأودية فتكون بحيرة تتجمع عليها الطيور، وتظل زمنًا يغري الزوار من أنحاء القصيم للتنزه وصيد الطيور.
(٧) أي الْمُهَضَّل، وهو مكان رواح الماشية من مرعاها، "هَضَّل الرجل غنمه-بالتشديد-: عاد بها في المساء بعد أن رعت"، انظر: محمد بن ناصر العبودي، كلمات قضت معجم بألفاظ اختفت من لغتنا الدارجة أو كادت (دارة الملك عبدالعزيز/ الرياض، ١٤٢٣هـ) ص ٢: ١٤١٩.

ومن القصص التي تُروى عنه أن ذكاءه فاق دهاء الذئب: في إحدى رحلاته اليومية اتجه ذات يوم نحو نفود صعافيق شرق روضة المصيّة مباشرة وتركها ترعى في نقرة واسعة شرق زبارة الحليلة، وحيث أن عين الراعي لاتُغفل أي شاردة أو واردة فقد لمح في أعلى الكثيب الرملي أُذنين علم بأنهما لذئب يترصد غفلة الراعي لينال نصيبه من رعيته ويُراقب الوضع كقاطع طريق متمرس يتحين الفرص السانحة ليضرب ضربته في الوقت المناسب.

فاستغل الراعي فرصة انصراف الذئب عن المراقبة وركز عصاه وسط الأغنام ووضع فوقها ثوبه وشماغه وانطلق بسرعة عالية يحمل معه بندقيته القديمة (المقمّع)[١] بعد أن حشاها بالبارود وقطعة واحدة من الرصاص تُسمى (دَرْجِه) تستخدم لصيد الطرائد الكبيرة متجهًا نحو الشرق، وقام بدورة كاملة بحيث أصبح موقعه خلف مكان الذئب مباشرة، ورآه يطل برأسه بين حين وآخر ثم يخفضه؛ لأنه يُشاهد خيال الراعي الذي استمتع بالمنظر الماثل أمامه فترة طويلةلم يفتر الذئب خلالها عن المتابعة المستمرة، ثم قرر إنهاء الوضع بإطلاق النار بدقة تصويب عالية تناثر بعدها رأس الذئب لأشلاء متباعدة"[٢].

و"لاتخلو قصص سكان الصحراء من ذكر الذئاب التي تعتبر العدو الطبيعي للرعاة في كل مكان وزمان، وقد روى فهد بن محمد المطيري يوم ١٤٢٨/١٠/٨هـ قصة في هذا المجال عندما ذهب أحد مربي الإبل في أول النهار لتفقد ناقته التي كانت على وشك الولادة (عشراء)[١] فوجد أثرًا لذئبين قد افترساها وأخرجا وليدها من بطنها رغم أن الذئاب لاتهاجم الإبل عادة؛ لكنهما انتهزا فرصة ضعفها المؤقت للسيطرة عليها، وبلغ غضب الرجل أشده فامتشق سلاحه وتتبع الأثر حتى ضاع في الجبال الصخرية التي تأكد أن خصميه لن يتجاوزاها لكثرة الكهوف والمغارات بها، وصدق حدسه فعندما ارتقى الجبل رأى أحد الذئبين يغط في سبات عميق بعد تلك الوجبة الدسمة في حفرة ضيقة مبطنة بالصخور لاتبعد عنه سوى بأمتار قليلة نحو الأسفل، فخشي من ارتداد طلقة البندقية نحوه، فرأى أن الحل الأمثل أن يسقط على الذئب صخرة كبيرة، ففعل لكنها أخطأت رأسه وكسرت بعض ضلوعه، وبدا كأنه عاجز عن الحركة، فنزل إليه ليشفي غليله ففوجئ بالذئب الشرس يهاجمه، فاشتبك معه في صراع مرير أصابه ببعض الخدوش؛ لكنه استطاع القضاء عليه بضرب رأسه بجوانب الحفرة الصخرية حتى تهشم رأسه وقضى نحبه غير مأسوف عليه، وكمن الرجل في الجبل لترصد الذئب الآخر طيلة النهار، ولمحه في آخره عن بعد قادمًا لزيارة صاحبه للتخطيط لغزوة جديدة؛ لكنه شم رائحة الرجل، فظل يترقب ويصدر أصواتًا غريبة تشبه نباح الكلاب أكثر من عواء الذئاب، وبقي الرجل في مكمنه برهة من الزمن حتى أطمأن الذئب واقترب من مرمى البندقية، فأطلق عليه رصاصة واحدة أصابته في مقتل، وتنفس الرجل الصعداء وخف كدره قليلًا بعد انتقامه من عدويه شر انتقام"[٢].

و"يطلق العامة وصف الذئب على الرجل الفطن الواسع الحيلة، ويروون الكثير من القصص التي تؤكد هذه الفرضية، منها ما قاله فهد بن محمد المطيري عن راعٍ نشر قطيعه في منتصف يوم ربيعي معتدل وسط روضةً معشبة يجاورها جبل أشمر، وقد أطلق لعنانه الخيال وانهمك في أحلام اليقظة التي انقطعت فجأة عندما لاحظ وجود حركة غيـر عادية بين الأغنام، فأرسل بصـره

---

(١) أي ذات القمع لصفرته التي تشبه قمع التمرة، وهو وعاء صغير جدًّا من الصفر الصفيق في قاعه كبريت، ولهذه البندقية مبسم ذا ثقب تنفذ منه شرارة الكبريت، يدخل القمع في المبسم كالطربوش في الرأس، فإذا حرر الزناد انطلقت مطرقة تسمى الديك؛ لأنها شبهه، ورضخت القمع، فانقدح الكبريت، وانطلقت الشرارة نافذة نحو بيت الذخيرة، وهو البارود الملهم من قصبة البندقية وعليه قطع رصاص تسمى حلبي، ويسد عليه بخرقة تدك لتنحبس الذخيرة مكانها، فإذا اشتعل البارود دفع بدخانه الكثيف الرصاص عبر أنبوبة البندقية.

(٢) عبدالرحمن بن عبدالله الغنايم، كتاب مازال تحت الإعداد يحتوي على مئات القصص.

---

(١) "إذا بلغت الناقةُ فِي حملهَا عشرةَ أشهرٍ فَهِيَ عُشَراء، ثمَّ لَا يزَال ذَلِك اسمَها حتَّى تَضَعَ وَبَعْدَمَا تضعُ لَا يزايلُها؛ وَجَمعهَا عِشَارٌ"، الأزهري، تهذيب اللغة، ١: ٢٦٢.

(٢) عبدالرحمن بن عبدالله الغنايم، كتاب مازال تحت الإعداد يحتوي على مئات القصص.

ليرى ذئبين هجما في وضح النهار على غير العادة، وحمل أحدهما تيسًا سمينًا بعد أن غرز أنيابه في إحدى أذنيه، ورماه فوق ظهره وانطلق به ليصعد سفح الجبل القريب، فركض الراعي خلفه حتى كاد أن يدركه لثقل الحمولة؛ لكنه رمى الفريسة نحو أحد الجانبين واستكمل طريقه نحو الأعلى بينما توقف الراعي عن المطاردة؛ لأن هدفه الحصول على التيس وليس معاقبة الذئب.

وانحدر الراعي بسرعة متناهية نحو أسفل الجبل للوصول للموقع المحتمل لسقوط التيس؛ لكنه لم يجده، فقد سبقه الذئب الآخر لالتقاطه، حيث اتجه منذ البداية لأسفل الجبل بانتظار سقوطه، ورآه يحمل الفريسة متوجهًا بها نحو المخبأ المشترك للذئبين، بعد أن نجحت خطتهما المحكمة للظفر بقوت يومهما دون عناء"[1].

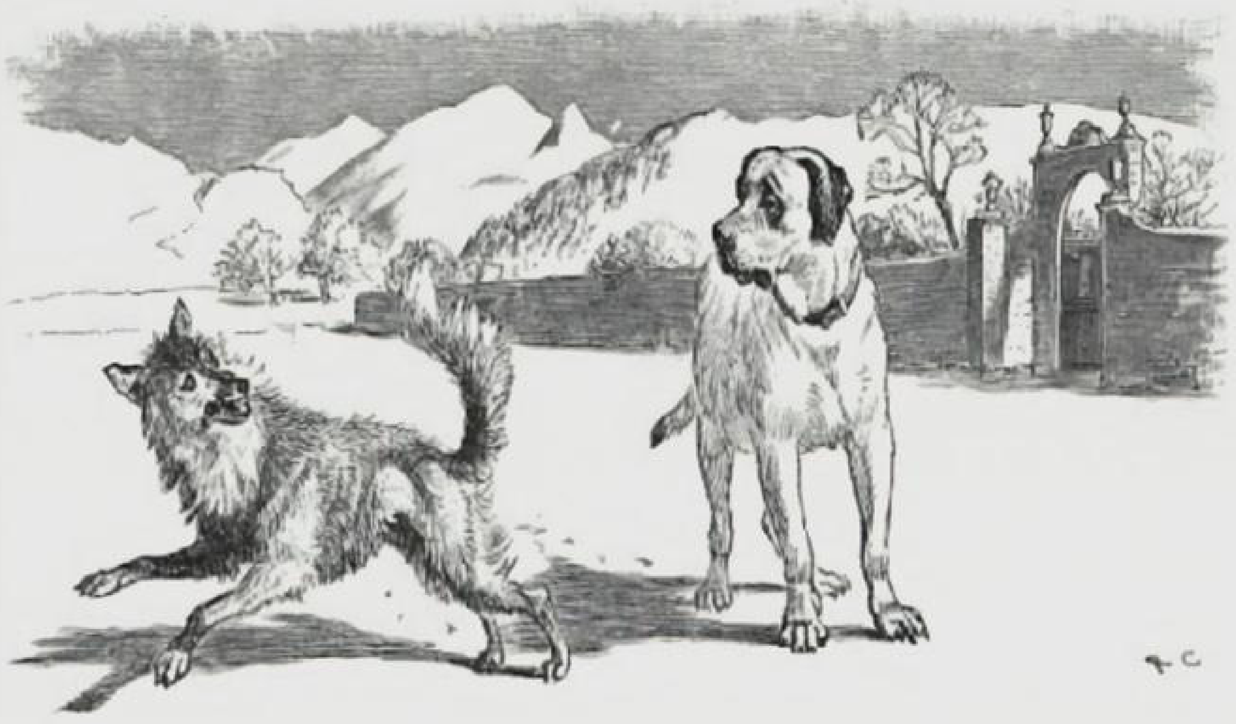

الصراع بين الكلب والذئب

إن يكن الذئب حربًا على الإنسان فالكلب ليس ثمّ حيوان يفوقه في إخلاصه للإنسان، فهو من يصارع الذئب الصائل الطامع في الغنم، وربما أتلف نفسه في سبيله؛ ولذلك حرص الرعاة وملاك الأغنام على اقتناء أقوى الكلاب وأشرسها لحمايتهم وحماية أغنامهم، والكلاب ربما اتخذت لحراسة البيت أو الحي كله فتراها تنبح الغريب حتى يتبين أمره بأن يلقاه صاحب المكان أو يزجر الكلب عن التعرض له أو أذاه، وربما استنبح الضيوف كلاب الحي لتنبيه أهله إلى الخطّار[2] الغرباء ليسارعوا في استقبالهم وتضييفهم، ولذا امتدح الشاعر العربي الكرماء الذين يكثر زوارهم بهدوء كلابهم إذ لا تستغرب القادم لكثرة القادمين، حسان بن ثابت:

يُغْشَوْنَ حتَّى لا تهِرُّ كِلابُهمْ
لا يَسألون عن السَّواد المُقْبِلِ

وسبّ الشاعر من استفاد من الاستنباح لتجنب الضيف وطمس أي علامة تدعو إلى القدوم، قال الأخطل يسب قوم جرير:

قَوْمٌ إذا استنبَحَ الأضيافُ كَلبَهُمُ
قالوا لأُمِّهِمُ بُولي على النارِ

(١) عبدالرحمن بن عبدالله الغنايم، كتاب مازال تحت الإعداد يحتوي على مئات القصص.

(٢) الخُطّار جمع خاطر وهو في لهجات الجزيرة الضيف الطارئ.

ومن حكايات صراع الكلب مع الذئب دفاعًا عن الإنسان أنه "عاش في وديان أبي خشبة شمال المذنب رجل من قبيلة عتيبة يُدعى أبو غايب يقوم برعي قطيع من الأغنام يخشى عليها من هجمات الذئاب التي تتكاثر في ذلك الوادي والمرتفعات الواقعة شرقه؛ ولذا اقتنى كلبًا هائل الحجم شديد الخطر لحمايتها، ولايطيب له لذيذ الكرى حتى يطلقه بعد صلاة المغرب خشية من تعرضه لعابري السبيل في النهار؛ لكنه شعر في أحد الأيام برغبة الكلب بالتحرر من قيوده قبل غروب الشمس بقليل، ففك رباطه، فانطلق بسرعة الريح متجهًا نحو الجنوب، وهو يزمجر بأصوات مخيفة، فقد صاحبه سماعها بعد وقت قصير وانتظر الراعي كلبه الأثير فلم يرجع فظل ساهرًا طوال الليل يترقب عودته.

وبعد انبلاج نور الصباح ركب الراعي حماره وانطلق للبحث عن حارسه الأثير، وبعد مسيرة تقارب الميل وجد جثة هامدة لذئب مزقته أنياب كلبه، فواصل طريقه ليجد ذئبًا آخر فارق الحياة وبجواره الكلب الوفي مضرجًا بدمائه بعد أن أنهكته الجراح في صراعه مع الذئبين، فحمله على ظهر حماره وعالجه بعناية تامة لمدة شهر حتى استعاد قواه بشكل تام؛ لكن الكلب بعد تلك التجربة القاسية أصبح يكتفي بحماية المواشي ولايتمادى في الابتعاد عن المكان إطلاقًا.

ويتجلى في مثل القصص البسيطة الدروس التي قد لايعيها بعض البشر الذين يكررون أخطاءهم دون استفادة مما جرى لهم وما أكثرهم"[1].

و"يتفق العامة على ذكاء الذئب ووفاء الكلب، ورغم أنهما من فصيلة واحدة يختلفان في نمط العيش، فأحدهما يهاجم الحيوانات الأليفة والآخر يدافع عنها قرب الحِمى؛ لكنه لايجسر على المواجهة الفردية خارجه.

وكان سكان المربّع الأسفل جنوب المذنب ١٧كم يجتمعون بعد صلاة المغرب في برحة واسعة جنوب منازلهم القليلة شمال شعيب الدالوبي[2] الذي يفيض في روضة المربع الخصبة، يتبادلون الأحاديث بعد يوم شاق من العمل الرعوي والاحتطاب، وقد أبقوا أغنامهم إلى الشرق منهم بحراسة كلبة اعتادت مطاردة الذئاب والفتك بها، وفي إحدى الليالي أقبل ذئب من قاع الوادي ليواجههم بشكل مباشر مخالفًا لعادة الذئاب في التسلل الخفي، فاندفعت الكلبة نحوه وهي تزمجر بصوت عال انقطع فجأة بعد وصولها حافة الوادي على بعد ١٠٠متر، ولما ذهب الرجال

(١) عبدالرحمن بن عبدالله الغنايم، كتاب مازال تحت الإعداد يحتوي على مئات القصص.

(٢)"من أكبر أودية المنطقة جنوب المربع يبعد عن المذنب ١٨كم"، والدالوبي منسوب إلى الدالوب مقلوب الدولاب، سمي به لغزارة الماء وسرعة جريانه فكأنه دولاب ماء، "والدُّولابُ والدَّوْلابُ، كلاهُما: عَلَى شَكْلِ النّاعُورةِ يُسْتَقَى بِها الماءُ، فارِسِيٌّ مُعَرَّبٌ"، ابن سيده، المحكم، ٩: ٣٣٦..

لاستجلاء الوضع وجدوها جثة هامدة بعد أن استدرجها الذئب نحو موضع معين كمن فيه ذئب آخر تعاونا للقضاء عليها بعد وضع تلك الخطة المحكمة التي قد توفر لهما مزيدًا من القوت في الليالي المقبلة"[1].

و"يحرص الرعاة في كل البقاع على حماية قطعانهم باستئناس كلاب الحراسة التي تتفانى في مواجهة الذئاب عدوها الطبيعي رغم أنهما من الفصيلة ذاتها، ويستأسد الكلب في عقر دار أهله لكنه لايستطيع مقارعة الذئب في قلب الصحراء لأنه سيدها المتوج، وعندما يتراخى هذا الحارس الأمين الذي يعتبر مضرب المثل في الوفاء في أداء دوره الدفاعي يعتبر وجوده كعدمه.

ففي نقرة عسافة وسط نفود صعافيق اقتنى عساف الجميلي وأولاده كلبًا ضخم الحجم رأوا فيه خير معين لحراسة أغنامهم؛ لكنه كان يتوارى عن الأنظار عندما يسمع عواء الذئاب ولاتصدر منه على الأقل همهمة تنذر بحلول الخطر فضاق به الملاك ذَرعًا وقرروا إعفاءه من تلك المهمة بأسرع وقت ممكن؛ لكنهم بعد أداء صلاة الفجر وجدوا ذئبًا كليل النظر وقع في بئر قليل العمق خالٍ من الماء فوجدوها فرصة سانحة للتخلص من الاثنين فأدلوا الكلب بحبل نحو قاع البئر ووضعوه في مواجهة قاتلة مع خصمه لا مندوحة فيها عن احتدام

(١) عبدالرحمن بن عبدالله الغنايم، كتاب مازال تحت الإعداد يحتوي على مئات القصص.

الصراع، ولامجال فيها والانزواء وعندما وجد الكلب نفسه في هذا الموقف الحاسم هجم بكل شراسة على الذئب ليمزقه إربًا ليتحول فيما بعد إلى وحش كاسر بعد أن زالت عقدة الخوف المتجذرة في أعماقه"[1].

قال الأستاذ عبدالرحمن بن عبدالله الغنايم "ومن قصصه [الشيخ صالح بن فايز الحربي] في السياق ذاته عندما تأخر قطيع أغنامه عن الرجوع في آخر أحد الأيام، فتوكل على الله، وهو يعلم الأخطار التي تتهددها في وضح النهار رغم وجود الراعي، ناهيك عن وجودها وحدها في غياهب الظلام، وفي الصباح الباكر ذهب للبحث عنها فوجدها سالمة؛ لأن كلبًا غريبًا تعهد بحمايتها طوال الليل من هجمات الذئاب، ورآه يحرس أحد صغارها الذي وُلد أثناء ضياعها ثم انصرف في الحال بعد قدوم الشيخ"[2].

هذه عينة من حكايات الذئب في المذنب، وأحسب أن عند كل منتمٍ لهذا البلد الطيب حكايات تثري هذا الجانب من الرصد الثقافي، ولعل أستاذنا عبدالرحمن بن عبدالله الغنايم يخرج لنا سفرًا يضم طائفة من تلك الحكايات المليئة بالحكمة والتجربة والعبر المصورة لحياة الناس وكفاحها المستمر في سبيل العيش.

(١) عبدالرحمن بن عبدالله الغنايم، كتاب مازال تحت الإعداد يحتوي على مئات القصص.

(٢) عبدالرحمن بن عبدالله الغنايم، كتاب مازال تحت الإعداد يحتوي على مئات القصص.